شعرية النص العجائبي في الحكاية الشعبية الجزائرية

▪ د. بريكـــــة بومـــادة
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخَّـص:

تنبع شعرية النص الشعبي من حقيقة ثابتة، مفادها أنه لم يروَ ليستهلك نفسه، بل يعمل باستمرار على ترك فراغات كثيرة، وعلى نحو متعمد حتى يملأها القارئ. وكثيرا ما تفاجئنا الحكايات الشعبية الجزائرية بهذه الفراغات التي تنم عن حيل أسلوبية راقية لا يستطيع التواصل معها وفك شفراتها إلا قارئ متمرس، يقرأ الجملة ويعيد قراءة النص قراءة جديدة قد يفاجئ حتى نفسه، لأن قراءاتنا المتعددة تعمل على إثراء النص وتوسيع دائرة التاويل والممكن.

الكلمات المفاتيح: الشعرية- النص العجائبي- الحكاية الشعبية- القارئ المحتمل.

Résumé :

La poétique du texte populaire est une réalité acquise, qui se résume dans le faite qu'il n'a pas été narré pour être emprisonné dans une lecture unique, mais des lectures multiples qui cherchent à combler les nombreux vides qui y sont laissés délibérément pour que le lecteur puisse les combler. Souvent, les contes populaires algériens nous surprennent avec ces vides, qui sont utilisés comme astuces stylistiques hauts de gamme, que seul un lecteur chevronné peut déchiffrer, en proposant une deuxième lecture qui peut le surprendre lui-même, car nos lectures multiples auront pour conséquence d'enrichir le texte et élargir le cercle de l'interprétation et du possible.

Mots clé : Poétique- texte Fabuleux- conte Populaire - lecteur supposé

Abstract:

The poetics of the popular text is an acquired reality, which is summed up in the fact that it has not been narrated to be imprisoned in a single reading, but multiple readings seeking to fill the many voids left deliberately left for that the reader can fill them. Often, Algerian folk tales surprise us with these voids, which are used as high-end stylistic tricks, which only a seasoned reader can decipher, by offering a second reading that can surprise him himself, because our multiple readings will result in Enrich the text and broaden the circle of interpretation and possible.

Keywords: Poetic- text Fabulous- tale Popular- Assumed reader

تقديم:

العجائبية هي نزعة إنسانية تتوق إلى خلق العجيب هذا الأخير الذي يكسر كل الطابوهات ويبني علاقات خيالية تساهم في خلق عوالم عجيبة متخيلة قوامها السحر واللامنطق، فالعجيب هو نتاج خيال عفوي بسيط يتوق إلى الخلاص والتغيير بأسلوب فني جميل، وكل هذا تجسده حكاياتنا الشعبية المتوارثة والمحفوظة في ذاكرة العامة بكل ما تحمله من خيال وسرد ومتعة فنية وقيم إنسانية.

شعرية النص العجائبي:

تبحث الشعرية بوجه عام في قوانين الخطاب الأدبي، ومرجعها الأوحد في ذلك هو الخطاب الأدبي نفسه وليس شيئا آخر، بحيث تنطلق منه لتعود إليه، فلا تولي اهتماما لمختلف الظروف المحيطة به.

يعرفها حسن ناظم: "إنها محاولة وضع نظرية عامة ومجردة ومحايثة للأدب بوصفه فنا لفظيا إنها تستنبط القوانين التي يتوجه الخطاب اللغوي بموجبها وجهة أدبية فهي إذن تشخيص قوانين أدبية في أي خطاب لغوي وبغض النظر عن اختلاف اللغات"[1].

يتضح من خلال هذا بأن الشعرية دراسة تنصب على الخطاب اللغوي للكشف عن القوانين التي بموجبها يتوجه وجهة أدبية، ذلك انه خطاب متميز يملك خصائص محددة لا نجدها في الخطابات الأخرى، كالخطابات الدينية والعلمية والسياسية وغيرها، وحتى إن وجدت فإنها لا تمثل الوظيفة الجوهرية الماثلة فيه وبقوة، كما هو الحال في الخطاب الأدبي ذلك أن من جملة خصائصه الإيحاء والمجاز والتخييل والعدول والتأويل وغيرها.

كما أن الشعرية تمنح الباحث حرية مطلقة في تأويل النص الأدبي، ذلك أن العمل الأدبي لا يكون مكتمل الخصائص إلا إذا تعددت فيه التأويلات والاحتمالات وذلك نتيجة الغموض الفني الذي يتجسد فيه.

فالشعرية هي المجاز الذي يجعل الأديب يعدل عن الاستعمال العادي والمألوف للغة، مما يفتح الدلالات على تأويلات عدة، وهي ولا شك خاصية تنفرد بها الكتابة الأدبية التي توظف اللغة في مستويات تتجاوزا لتقرير والمباشرة والتواصل وتتعداه إلى فضاءات التأويل والإيحاء.

عرف تودوروف الشعرية بقوله: " ليس العمل الأدبي في حد ذاته هو موضوع الشعرية، فما تستنطقه هو خصائص هذا الخطاب الأدبي، وكل عمل عندئذ لا يعتبر إلا تجليا لبنية محددة وعامة، ليس العلم إلا انجازا من انجازاتها الممكنة، ولكل ذلك فان هذا العلم لا يعنى بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى يعنى بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي، أي الأدبية "[2].

فالشعرية عند تودوروف لا تبحث في العمل الأدبي في ذاته وإنما تبحث في خصائص هذا العمل التي تمنحه ميزة التميز والتفرد عن غيره من الخطابات ألا وهي الأدبية.

العجائبية هي نزعة إنسانية في ابتكار العجيب وتحدي المستحيل فهي "حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه"[3].

فهي ذلك الاندهاش الذي يحدث في نفس الإنسان بسبب عجزه عن تفسير العجيب الذي رآه أو سمعه، فكلما غابت التعليلات والتفسيرات العلمية والمنطقية للظواهر، سيطرت الدهشة والحيرة على الإنسان، وزاد العجب

عنده، فالعجيب يخرق دائما تصورات ومفاهيم قبلية تخرج عن ما هو مألوف ومعتاد .

ومصدر العجب هو النفس البشرية التواقة دائما إلى عوالم المستحيل والخيال " فهو حيرة تستبد بالإنسان بسبب عدم قدرته على معرفة الشيء أو سببه أو الطريقة التي ينبغي إتباعها للتأثير عليه"[4].

وبما أن المتسبب في العجب والدهشة والحيرة هو العجز عن تفسير الظواهر وإعطائها تعليلات منطقية، فان التعود على رؤيتها يذهب العجب إذ ينتهي الاندهاش بسبب الألفة والرؤية المتواصلة والمتكررة.

فالعجيب هو تجاوز للمعقول، إذ يقوم على لعبة الاحتمال والإمكان فهو يتيح فرصة النظر إلى اللاواقع، وإعادة بناء فضاءات ممكنة هروبا من ضغط الواقع والآني، فالعجائبي وان كان قائما على الخيال فهو متداخل مع الواقع، لكنه يتجاوز المعقول والممكن والسببية إلى اللامعقول والخيال الذي لا ضابط له، مما يدخل القارئ في عالم متخيل لا وجود فيه للمستحيل والطابو، ولعل الحكاية الشعبية هي من أهم المحطات التي كانت فضاء مفتوحا للاختراق والمغامرة المستحيلة.

ومن أهم مقومات الأدب العجائبي نجد التردد والحيرة والشك على مستوى التأثر والتقبل والاستجابة.

إضافة إلى توفر الحدث الخارق الذي يبعث على الاندهاش والاستغراب، بالرغم من انطلاقه من الواقع، إلا أن العجيب يكمن في طريقة إعادة سرد هذا الواقع بطريقة تتحدى الممكن والطبيعة والقوانين العقلية والمنطقية.

فقد ورد في تعريف العجيب عند محمد أركون أنه " كلمة تعني أولا الاندهاش أمام ظاهرة غير عادية، ولقد أتى هذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكَمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (*)

ثم تعني ثانية الاستغراب والاندهاش وهذا ما نجده في قوله تعالى : ﴿ **بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ** ﴾ (**)

كما تعني الخارق للعادة واللامعقول كقوله تعالى :" **قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** "(***)

وتعني الإعجاب والرضى في قوله تعالى :" ... **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ** "(****) (5).

فالعجائبية هي ذلك الاندهاش الذي يحدث في نفس الإنسان بسبب عجزه تفسير الشيء الغريب الذي رآه او سمعه، فالعجيب يخرق دائما تصورات ومفاهيم قبلية تخرج عما هو مألوف ومعتاد، فيثير في نفس القارئ الدهشة والحيرة، وهذا ليس دائما بالظاهرة السلبية بل قد يكون ايجابيا ذلك أن الإنسان بطبعه الميل إلى ما هو جديد وغير مألوف.

إنّ تأثر الإنسان بالعجيب يتولد عنه انفعالات مختلفة كالدهشة والقلق والتوتر، بالإضافة إلى الحيرة والتردد في إمكانية تقبل وتصديق تلك الظاهرة العجائبية، وعن كيفية التعامل معها، نظرا لكون العجيب لا يقوم على أسس واضحة، ولا يسير وفق قوانين محددة، بل هو ظاهرة تخترق كل البنى والأعراف والقوانين المتعارف عليها.

وبما أن المتسبب الرئيس في العجب والدهشة والحيرة هو العجز الكامل عن إعطاء تفسير للظواهر وتقديم تعليلات مقنعة لها، فان التعود على رؤيتها قد يساعد وبشكل كامل في القضاء على العجيب وتقبل الأمر دون عجب أو حيرة أو دهشة، مما يجعل من العجيب أمرا عاديا مألوفا ومقبولا " إذ ينتهي الاندهاش أو الإعجاب بسبب الألفة والرؤية المتكررة"(6).

ولذلك قالت الدكتورة نبيلة إبراهيم في معرض حديثها عن الحكايات الخرافية أن العجب في هذه الحكايات لا يأتي من تخطي المألوف أو الإتيان بالعجيب والمدهش، وإنما يكمن العجيب فيها في المبالغة في المألوف نفسه . ولعل هذا ما لم يتعود عليه القارئ من أبطال يتوخى فيهم العظمة والقوة الخارقة والتحليق المستمر في عوالم المغامرة والمستحيل، لذلك فهو مهيأ سلفا للتعجب والدهشة بل يمكننا القول إنهما من صميم إحساسه بلذة القراءة والاستمتاع بعجائبية النص الشعبي الذي يهيئ قارئه لعدم التساؤل عن مدى صدقها لأن السؤال هنا عند مجتمع القص الذي يستمتع ويتلذذ بهذه النصوص هو بلا شك سؤال غير وارد.

يعرف جميل صليبا العجيب بقوله: "العجيب يطلق اليوم على كل تخيل وهمي متحرر من قيد العقل، أوكل فاعلية ذهنية خاصة بتلاعب الأفكار أو على كل رغبة طارئة لا تستند إلى سبب معقول"[7].

فالعجيب هو تجاوز للمعقول، حيث يقوم على لعبة الاحتمال إذ يتيح فرصة النظر إلى اللاواقع وإعادة النظر فيما يبدو أنه واضح وشفاف فالعجائبي وان كان قائما على الخيال فهو متداخل مع الواقع لكنه يتجاوز المعقول والسببية واللامعقول، فيدخل القارئ ضمن عالمين مختلفين (واقعي، وغير واقعي) ويدرك تبعا لذلك وجود انفصال واضح وجلي بين هذين العالمين.

مقومات النص العجائبي:

1 – التردد والحيرة والشك، وذلك على مستويات محددة للقراءة والتأويل، بحيث يشك الإنسان في كل شيء لا يستطيع إيجاد تفسيرات مقنعة له، مما يدفعه إلى التردد في تقبل الأشياء والاستجابة إليها.

2- الصراع بين الواقعي واللاواقعي أو الصراع بين العقل والمنطق و الواقع المألوف والخيال والوهم والعجيب، تداخل كل هذه العناصر تجر القارئ رغما عنه إلى محاولة المحاولة تلوى الأخرى لإدراك الواقع من اللاواقع.

3 – وجود حدث خارق تقوم عليه الأحداث العامة للنص العجائبي، ذلك أن الحدث الغريب الخارق هو أساس العجب والدهشة مما يسهم في خرق توقعات القراء في صناعة حدث مشابه لفنائه المطلق في المستحيل والخارق والعجيب.

4 – عدم اعتراف النص العجائبي بالمواضعات والأعراف والقوانين الطبيعية والعقلية والمنطقية، ذلك أن جوهر العجائبية هي السفر دون جواز متعارف عليه من عادات وأعراف ومنطق وعقل، بل هو تجاوز لكل هذا وعدم الاعتراف بالموجود، وهذا ما يثير في نفس المتلقي الشك والدهشة والتعجب والرعب أحيانا.

"إن الخطابات العجائبية نصوص تخييلية تتراوح بين العجيب والغريب وبين الوهم والواقع وبين المنطق واللامعقول وبين الانسجام واللاانسجام "[8].

فالعجائبية غير مقيدة لا بقوانين الطبيعة ولا بقوانين العقل والمنطق، بل هي دائما وأبدا خرق لهما ولعل هذا ما يميزها ويعلي من شأنها.

الحكاية الشعبية:

إذا بحثنا عن أبسط تعريف للحكاية فإنها :"الحكاية النثرية التي انتقلت من جيل إلى جيل سواء كانت مدونة كأن تظل القصة تروى بواسطة مؤلف نقلا عن مؤلف آخر أو اعتمدت على الكلمة المنطوقة تنتقل من شخص إلى

آخر بمعنى أن الحكاية تظل تسمع وتروى بإضافات أو بدون إضافات أو تغيرات يدخلها الراوي الجديد عليها"[9].

وهي انعكاس لضمير الشعب انعكاسا مطبوعا لا مصنوعا، لتجعل منه مجتمعا له خصائصه المتميزة وطابعه الخاص، فهي" شكل قصصي يتخذ مادته من الواقع النفسي والاجتماعي الذي يعيشه الشعب"[10]، فالحكاية الشعبية قد تبعد عن الواقع، ولكنها تظل لصيقة به، تستدعي خيالنا وتستنطقه من خلال استدعاء الصور التي نحملها في ذاكرتنا عن كل الموتيفات الموظفة، فعندما يتكلم الراوي عن الأفعى وعن الحيوانات فانه يرسم في ذهن كل مستمع صورة بجميع أبعادها وملامحها وهي ولا شك صورة مأخوذة من المعايشة والسماع، فمهما أغرقنا الخيال في عوالم المغامرة والمستحيل إلا أنه يبني دائما الجسور بين الماضي والحاضر والمكان، فالخيال لا يبعدنا عن معالجة مشكلات الواقع والانطلاق منه والعودة إليه، إنما نجده يحمل على عاتقه مهمة معالجة مصاعب الحياة والواقع الذي نعيشه، كما قد يقدم إشارات واضحة ومهمة وتصور للمستقبل وذلك من خلال النماذج التي يرسمها. ومن هذا المنطلق فهي "فن في غاية القدم، مرتكز على السرد المباشر المؤدي إلى الإمتاع والتأثير في نفوس السامعين، يتخذ موضوعا له الأشياء الخيالية والمغامرات الغريبة، وقد يعنى بالأمور الممكنة الوقوع أو الأحداث الحقيقية التي يعدل فيها الراوي ويقحم فيها أمالي خيالية وإحساسه ومحصلات مواقفه من الحياة"[11].

وتظهر بوضوح فعالية الثقافة الجماهيرية التي تجعل الحكاية الشعبية عبارة عن موتيفات فولكلورية بغية أحداث استجابة لدى المتلقي، وذلك باستنطاق مخزونه المعرفي وتقديمها للقراءة والتـــأويل بنكهة تتماشى

والسياق الحضاري الجديد. والمتلقي بدوره يعمل جاهدا على المحافظة على هذا الموروث بقراءته والبحث فيه.

شعرية النص العجائبي وتجلياته في الحكاية الشعبية:

إن مصدر العجب هو النفس البشرية التواقة دائما إلى عوالم المستحيل والخيال، وبما أن المتسبب في العجب هو الدهشة والحيرة والعجز عن تفسير الظواهر وإعطائها تعليلات منطقية، فان التعود على رؤيتها يذهب العجب إذ ينتهي الاندهاش بسبب الألفة والرؤية المتواصلة والمتكررة، وتكمن شعرية العجيب في القفز على الواقع ومعانقة المستحيل الذي تمنحه اللغة الشعرية الحالمة القدرة على البوح والقص والحلم اللانهائي.

فالعجيب هو تجاوز للمعقول إذ يقوم على لعبة الاحتمال والإمكان إذ يتيح فرصة النظر إلى الواقع وإعادة بناء فضاءات ممكنة هروبا من ضغط الواقع والآني، فالعجائبي وان كان قائما على الخيال فهو متداخل مع الواقع، لكنه يتجاوز المعقول والممكن، ولعل الحكاية الشعبية من أهم المحطات التي كانت فضاء مفتوحا للاختراق والمغامرة المستحيلة.

العجيب المبني على الإرادة الإلهية وفق تصور العامة:

مما لا شك فيه أن حكاياتنا الشعبية تزخر بأنواع كثيرة من العجيب المبني على الإرادة الإلهية وفق التصور الشعبي البسيط، والحكاية تلمح إلى ذلك دون تصريح، بل نفهم هذه المعاني من خلال قراءة الحكاية أو الاستماع إليها بحيث يبرز العجيب الذي يشدنا إلى تفاصيل الحكاية حيث نندمج معها ونحس بأنفاسها وهي تطير بنا إلى عالم المستحيل و اللامنطق لتحط بنا في

عالم جميل حيث لا وجود للمستحيل والمحرم، بل كل شيء مباح وممكن، ومن ذلك حكاية "الرجل الذي خرج باحثا عن القدرة الإلهية"[12].

وذلك بعد تعرضه هو وعائلته إلى ظلم كبير من جار ظالم مستبد، وخلال مسيرته يلتقي برجل قتل تسعا وتسعين رجلا فيستضيفه هذا الأخير في بيته ويكرمه بسخاء، وقبل مغادرته يطلب منه أن يسأل الله عن مصيره يوم القيامة وقد تاب توبة نصوح، يمضي الرجل في طريقه فيلتقي بشيخ قضى حياته كلها يعبد الله في كوخه، فكان الطعام ينزل إليه كل مساء من السماء، وفي تلك الليلة نزل الطعام كالعادة ولكن فوقه قطعتين من اللحم، وكانت قطعة الضيف أكبر من قطعة الشيخ، وهنا نفس الشيخ الأمارة بالسوء تغلبت عليه وأخذ قطعة اللحم الأكبر ولحظتها أحس بسوء فعلته، وحين هم الضيف بالمغادرة مواصلا رحلة بحثه، طلب منه الشيخ أن يسأل الله عن مصيره وقد وقع فريسة لنفسه في لحظة ضعف، وما هي إلا لحظات حتى بدت الإرادة الإلهية ممثلة في شيخ ذو لحية بيضاء يرتدي لباسا أبيضا، فيخبر الرجل أنه قد وصل إلى غايته فكانت الإجابات على المطالب كل بحسب حاجته، فأما الرجل المظلوم فان القدرة الإلهية طلبت منه أن يردد هو وكل أفراد أسرته عبارة "**توكلوا ربي**" أما عن الرجل القاتل والتائب فان القدرة الإلهية بشرته بقبول توبته لان توبته صادقة، وأما الشيخ فان الله قد غضب عليه وضاعت بذلك جميع السنوات التي قضاها في العبادة وما عليه إلا بالتوبة والعمل الصالح.

عاد الرجل أدراجه، فأخبر الشيخ والرجل الآخر بنتيجة لقاءه بربه، وفور وصوله قالت أسرته العبارة السحرية وفي الصباح جاءهم خبر وفاة الجار الظالم.

والعجيب في الحكاية هو تمثل القدرة الإلهية في صورة شيخ كبير ذو لحية بيضاء، وهذا راجع إلى رغبة الإنسان الشعبي في التصوير والتخصيص والإيمان المطلق بالقدرة الإلهية والتي تقف بجانب الخير والحق وتنصرهما دائما، تتضح أمامنا شعرية القص الشعبي الذي يميل دائما إلى تمثل الغيب وتصويره بدقة، بل إن جمالية الصورة الحكائية الشعبية لا تكتمل عناصرها إلا إذا كان التصوير واضح المعالم يخصص ويشخص بحيث لا يترك فضاءات الشك والريبة، بل انك وأنت تستمع أو تقرأ الحكاية الشعبية لا تجد في نفسك سؤالا بلا جواب إذ إن الحكاية تشفي غليل أسئلتك قبل أن تولد لأنها تتوقع وببساطة ما تريد أن تسمع أو أن تقرأ، فتأتي شعرية العجيب هنا مصورة ومشبعة لخيالاتك الحالمة فتكون الحكاية وهي تسرد تفاصيل الصور المتاحة مجسدة لكل الأحداث حتى وان كانت متعلقة بالقدرة الإلهية، فلا يتحرج من تصويرها لأن الفنان الشعبي أقدر الناس على معرفة ما يطلبه الإنسان الشعبي وما ينتظره وهو يستمع للحكاية ويستمتع بها.

ومن هذا النوع أيضا ما يحكى عن زوجة فجعت في أبنائها الذكور جميعا، فتمنت أن يرزقها الله تعالى ولدا ولو كان قزما، وهذا في حكاية "الطفل القزم" وفعلا يستجيب الله لدعائها حيث أنجبت المرأة ولدا كما طلبت وتمنت، والعجيب هنا هو تعبير الحكاية عن شدة حاجة الإنسان إلى الولد خاصة المرأة، فلا يغني عن الولد شيء من مال أو جاه، ولإلحاح هذه الحاجة على المرأة تتمنى من الله أن يرزقها ولدا ولو كان قزما لأنه يشبع لديها هذه الحاجة.

الأمر العجيب أيضا في هذه الحكاية هو أن هذا الطفل القزم الذي ينظر إليه نظرة احتقار يحقق المعجزات التي يعجز عن تحقيقها من هم

بأحجام طبيعية، لذلك يقول المثل الشعبي "كل قصير فتنة" وهذا دلالة على ما ارتبط في أذهان العامة من مكر ودهاء وذكاء وقوة.

عجيب المسخ من إنسان إلى كائن آخر:

يعتمد هذا النوع على مسخ الإنسان في صورة حيوان أو أي كائن آخر، فيمر الإنسان بصعوبات ومشاق حتى يعود إلى صورته الأصلية الأولى، وغالبا ما يكون الحب هو الدافع الذي يكون وراء هذه العودة، وعلى كل حال فهو مسخ مؤقت.

ومنه ما يحكى عن شاب يتحول إلى سمكة صغيرة فيتقمص اليهودي هيئة سمكة كبيرة محاولا أكل الشاب، ثم تأتي سلسلة من التحولات تصل إلى تحول الشاب إلى حبة رمان فيتحول اليهودي إلى ديك يلتقط الحب وحين يصل إلى آخر حبة رمان يتحول الشاب إلى سكين حادة تقطع رأس اليهودي كل هذا نلمحه في حكاية " ابن الفقير وابن الغني" وهي حكاية جزائرية شعبية من الشرق الجزائري .

ولعل الإنسان الشعبي الجزائري أخذ سلسلة التحولات من حكايات ألف ليلة وليلة، حيث نجد حكاية "الحمال مع البنات" التي تضمنت عنصرا عجائبيا يتقاطع مع الحكاية الشعبية السالفة الذكر حيث تروي أن ابن الملك اقتحم العالم السفلي ولم يحترم قوانينه فكان أن حوله العفريت إلى قرد هذا الأخير اقتناه أحد البحارة وصار يتجول معه في البلدان والأمصار وفي أحد الأسفار توقفت السفينة على أرض يحكمها ملك عادل وله ابنة حكيمة، وما ان دخل القرد حتى عرفت الفتاة أن القرد رجل فقد صورته الحقيقية، وهنا استدعت العفريت وتقاتلت معه: "انقلب العفريت أسدا وهجم على الصبية فأسرعت وأخذت شعرة من شعرها بيدها وهمست بشفتيها فصارت الشعرة

سيفا ماضيا وضربت الأسد نصفين، فصارت رأسه عقربا، فانقلبت الصبية حية عظيمة وهمهمت على هذا اللعين وهو في صفة عقرب، فتقاتلا قتالا شديدا، ثم انقلب العقرب عقابا فانقلبت الحية نسرا وسارت وراء العقاب ... ثم انقلب العقاب قطا أسودا فانقلبت الصبية ذئبا فتشاحنا في القصر ساعة زمنية وتقاتلا قتالا شديدا، فرأى القط نفسه مغلوبا فانقلب وصار رمانة حمراء كبيرة ووقعت تلك الرمانة في بركة فقصدها الذئب فارتفعت في الهواء ووقعت في بلاط القصر فانكسرت وانتثر الحب كل حبة وحدها، وامتلأت أرض القصر فاقلب الذئب ديكا لأجل أن يأكل ذلك الحب حتى لا يترك منه حبة"[13].

ومن عجيب المسخ كذلك هو المسخ في هيئة طائر وربما يرجع ذلك إلى مؤثرات عديدة من الحياة اليومية، فالطائر دائما هو دليل الحرية والانعتاق، إضافة إلى علاقته الحميمة بالإنسان، فهو يعيش مع هذا الأخير يزين بيته ويملأ عالمه تغريدا وفرحا ومن ذلك حكاية " الرجل الذي أكل ابنه " المنتشرة في منطقة الشرق الجزائري، التي تروي عن مسخ الطفل في صورة طائر مغرد، يحط كل يوم في حديقة البيت مطالبا بالثأر لأنه قتل غدرا من طرف زوجة الأب الشريرة، فكان يأتي ويغني "يما ذبحتني أو بابا كلا لحيماتي وأختي العزيزة لمت اعضيماتي دفنتهم تحت الشجيرة وليت أنا طير نلعب عالحطيرة ...تو بابا تو."

هذه الجزئية مأخوذة من التراث العربي حيث كان الإنسان يعتقد جازما أن الميت إذا مات مقتولا فانه تنطلق من رأسه هامة تسمى الصدى تنادي "اسقوني اسقوني "، فإذا قتل القاتل كفت عن الصياح، ولذلك لا يكف الطفل الصغير الممسوخ في هيئة طائر عن الصياح حتى تذبح زوجة الأب، هنا فقط تجد روح الصغير أخيرا الراحة التي تبحث عنها في القصاص من

القاتل وتحقيق العدالة . ولعل هذا كله ترجمة صريحة لفلسفة الإنسان الشعبي الذي تتوق نفسه إلى العدالة والقصاص، فيعبر عن ذلك بصياغة حكايات شعبية بسيطة المحتوى ولكنها عميقة المغزى بعيدة الهدف، كل هذا في قالب حكائي مشوق تمتزج فيه الحقيقة بالخيال ليتشكل عبر منطق الحكاية العجائبية فسيفساء الحكي اللامحدود واللامنطقي، الذي يؤطره حب الإنسان لكل ما هو عجيب وغريب ورغبته الملحة في خرق توقعات القارئ وحمله على التهيؤ دوما وأبدا إلى المغامرة المستحيلة، وانتظار دائم وترقب لما ستأتي به مفاجآت الحكي ودهاليز السرد العجائبي.

عجيب الحيوان الخرافي " الغول":

وردت شخصية الغول في عدد كبير من الحكايات، حيث تحرك الأحداث وتمنحها متعة كبيرة تشد المتلقي إلى الاستماع والاستمتاع، كما يحمل الإنسان الشعبي صورة خيالية غير واضحة المعالم عن هذا الكائن الخرافي العجيب، فهو ضخم الجثة له أسنان بارزة وحادة، وشعره طويل جدا، وأهم صفاته أنه آكل للحوم البشر، هذه الصورة انطبعت في فكر الإنسان الشعبي وآمن بها إيمانا مطلقا، كما نجد له صورة أخرى كما هو الشأن في الميثولوجيا العربية التي تصور الغول غالبا ذا رؤوس سبعة وهو عملاق في قامته يتغذى بلحم البشر. "فالغول كائن غيبي يكاد القصص الخرافي الذي يشيع أن لا يخلو من ذكره كبطل يصنع أحداث القصص" [14].

من العجيب وجود الغول الذي من المفروض أن يكون عدوا للإنسان يتحول ليكون طوع أمره يساعده في قضاء أعماله وينصح له ويخاف عليه، ومن ذلك حكاية تروى عن امرأة تمنت أن تتزوج السلطان وتنجب منه توأما غريبا، الطفل يملك قرنا من الذهب وآخر من الفضة، والطفلة إذا مشطت

شعر رأسها تساقط منه الماس، و يحقق الله أمنيتها فتتزوج السلطان وتنجب منه ما تمنت وطلبت، لكن المرأة الشريرة ستوت تغار منها وتأخذ الطفلين وتضعهما داخل صندوق وترمي بهما في النهر، وبينما غول يصطاد في النهر حتى شاهد الصندوق فأخذه معه إلى زوجته، وفور أن شاهدت ما بداخل الصندوق حتى قذف الله في قلبها حبهما فقامت بإرضاعهما من حليبها حتى أصبحا جزء منها، وحين كبرا بنى لهما الغول قصرا فخما يضاهي قصر السلطان. ويواصل الغول حماية الشاب فيحقق له جميع أمنياته ويعيده إلى قصر أبيه معززا مكرما، حيث يلتقي بأمه المظلومة ويقتص من المرأة الشريرة بقتلها جزاء على ما فعلته. كما يساعده في الزواج من المرأة الجميلة التي تكمل سعادة الشاب، فما كان للشاب أن يقتحم جميع هذه العراقيل، ولا أن يصل إلى العالم السفلي حيث توجد زوجته الجميلة، والتي تعتبر عنصرا عجائبيا أسهم في تشكيل صورة البطل الخارق للعادة، الذي يقتحم العالم السفلي ويعود منتصرا محملا بالغاية التي سافر وغامر لأجلها، وهذا ما يصدقه القارئ المتلقي دون أن يشك في بطولة البطل لأن مجتمع القص مهيأ سلفا لتصديق ما يأتي به البطل من خوارق لا يصدقها العقل، ولا تأتي الحيرة والتردد من الشك في بطولة البطل، وإنما في انتظارها والترقب المستمر لحدوثها بيقين مطلق في قدرات البطل وبالتالي انتصاره لا محالة في النهاية، وهذا راجع دائما لفلسفة شعبية تؤمن بأن الحق لا بد أن ينتصر في النهاية، وما دام البطل ممثلا للحق والخير فان النصر حليفه دائما.

ثم إن جزئية رمي الصندوق في النهر مأخوذة من التراث الديني حيث كان مصير سيدنا موسى الرمي في النهر وهو طفل رضيع، وتشاء قدرة الله عز وجل أن يعود الطفل إلى حضن أمه كي تقر عينها، ويكون هذا الطفل الرسول المنتظر الذي يحقق العدل ويقضي على فرعون وجنوده،

ففرعون هو المارد الشرير المؤذي بينما مثلت زوجته المرأة الخيرة الطيبة والتي أحبت الطفل وآمنت به وبنبوته، بينما المارد في حكايتنا الشعبية هو الشخصية الخيرة التي آزرت البطل وساهمت في تحقيق بطولته.

عجيب السحر والقوى الخفية:

يسهم السحر في تشكيل شعرية القص الشعبي، ذلك أن للسحر تأثيره الدائم في تفكير الناس في كل الأزمنة والعصور، فهو من أهم الموتيفات التي تساهم في خلق عالم حكائي رائع يتحطم عليه كل مستحيل، ويحقق الإنسان حلمه في اجتياز كل ما هو طابو حيث يمارس حريته في بناء عالم سحري يكون هو البطل الوحيد فيه، يتحدى كل العراقيل ولا تقف أمامه الحواجز، عالم جميل تتخلص فيه النفس من ألآمها وتجد الاطمئنان والراحة، فالسحر ليس مجرد علم زائف وشكلا من أشكال الفنون العقيمة، وإنما السحر هو شكل من أشكال المعرفة أو تعبير ثقافي معقد .

ولذلك كانت الإشكالية معقدة في الحديث عن عجيب السحر والقوى الخفية وتجلياتها في النص الشعبي (الحكاية)، وذلك أن توالج السحر مع الحكاية وتساكنهما حقيقة لا مجال لإثارة الشكوك حولها، ولا شك أن ثمة علاقة متبادلة بين الحكاية والسحر.

ويمكن بناء على ذلك اعتبار الحكاية الشعبية انعكاسا فكريا للممارسات السحرية، إن الزمن المتخيل الفردوسي الجميل الذي يمحو ويسحق الزمن الدنيوي التاريخي يقذف بالإنسان في أحضان زمن سحري هو زمن الأحلام والتخيل الذي لا سبيل إلى استرجاعه والغوص فيه إلا عن طريق هذه الآلية الفريدة من نوعها ألا وهي السحر.

ومن عجيب السحر ما يحكى عن رجل فقير يعيش مع أمه في كوخ حقير، وفي يوم من الأيام وبينما كان الرجل مارا بجانب بئر مهجور إذ وجد خاتما وفور أن وضعه في يده حتى سمع صوتا منبعثا من الخاتم يخبره أنه طوع أمره وأنه بإمكانه أن يحقق له ما يريد وما يتمنى، فكان الغنى والقصر الفخم والمال الوفير أهم مطالب الشاب الفقير في حكاية " خاتم سليمان " وفعلا تتحول حال الشاب من الفقر إلى الغنى، وتتويجا لجل هذه الأمنيات يطلب الشاب من الخاتم أن يزوجه ابنة السلطان وفعلا تتحقق أمنيته ويعيش في سعادة ورخاء.

يتضح العجيب في ذلك الكائن المجهول الذي يسكن داخل الخاتم فلا يسمع إلا صوته، وهو الذي يحمل له الخير كله، انطلاقا من قوة السحر وعجيب التحول مما يسمح للشاب من الانتقال من حياة الفقر والحرمان إلى حياة الغنى واليسر، وهذا بفضل قوة عجيبة منبعثة من خاتم عجيب.

والحكاية تعبير صريح عن حلم الفقراء بالتخلص من الفقر وهو حلم لا يحمل وعيا واضحا بأسباب الفقر وسبل النجاة منه، فالحكاية تتوهم الخلاص في شكل عجيب مبهر، عماده العجائبية والسحر والحظ، وليس الإحساس الواعي بالواقع وبذلك فهي تعبر عن الخيال الذي يستند إلى رغبة شديدة في التغيير وإحساس قوي جامح بالتعويض، ذلك أن الاستغلال والاضطهاد أحالا الحياة إلى سلسلة متصلة من البؤس والشقاء مما قضى على قدرة الإنسان الفقير البسيط على تحسين أحواله، مما دفعه إلى البحث عن العزاء والخلاص في عالم السحر وما وراء الطبيعة.

تجمع الحكاية بين الخيال الواسع المطلق والوهم الجميل وبين مرارة الواقع والألم وضيق العيش، فتصور حرمان الرجل من العيش الكريم ثم تصوره وهو ينعم بحياة جميلة من قصر فخم ومال وفير محققة بذلك أقصى

ما يستطيع هذا الفقير أن يحلم به أو أن يتوهم حدوثه . ولذلك تؤكد الحكاية عدة قيم في الرجل، فهو رجل صبور راض بعيشه مع أمه العجوز داخل كوخ حقير تغيب فيه أدنى أسباب العيش الكريم، ومع ذلك وفور أن أحس بقوة الخاتم حتى بدأ يطلب الغنى والمال وختم ذلك كله بمصاهرة السلطان، وكأن الحكاية تقول أن المال لابد له من سلطة تسنده وتحافظ عليه.

يظل العجيب في الحكاية الشعبية كذريعة لطرح أفكار المجتمع والتي لا يمكن الإفصاح عنها بطريقة مباشرة خوفا من تخطي الحدود الاجتماعية المفروضة، وتجنبا للعقوبات، فالحكاية تتخفى وراء العجيب لتتجاوز كل الطابوهات بالاعتماد على الشخصيات الخرافية والأحداث الغريبة والأمكنة والأزمنة المتخيلة، كما تهدف الحكاية كذلك إلى فتح فضاءات الخيال والوهم وطرائق الحكي اللامنطقي حتى تخلق عوالم عجيبة تفتح أمام المتلقي آفاق المعرفة الفنية والجمالية، بالإضافة إلى تمكينه من التمتع بفنيات السرد القصصي الممتع، فالحكاية الشعبية تملك قدرة خارقة في الحفظ والسرد وإعادة كل العناصر المحفوظة في الذاكرة الشعبية ترتيبا وتركيبا ومزجا، حتى تخرج الحكاية في أبهى صورها الحكائية الممتعة.

وتبقى هذه الحكايات المرتكزة على العجائبية تحمل دوما وأبدا قراءات متعددة ومنفتحة على فضاءات التأويل المختلفة لما تحمله من رموز وإشارات عفوية وبناء فني بسيط، ولكنها لا تخلو من عمق الانتماء إلى ثقافة ضاربة في الزمن تحمل من المرجعيات ما هو ديني وأسطوري وتاريخي، ولذلك تبقى هذه القراءة واحدة من مجموع القراءات الممكنة لهذا التراث الضخم.

الإحـــــــالات:

1.حسن ناظم "مفاهيم الشعرية" المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1994، ص 9.

2.تزفيتان تودوروف "الشعرية" تر: شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء، ط 2، 1990، ص 23.

3.زكريا القزويني "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" منشورات دار الآفاق، بيروت، ط 1، 1981، ص 10.

4.محمد أركون "الفكر الإسلامي قراءة علمية"، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط2، 1996، ص 189.

* سورة الأعراف : الآية 63.

** سورة الصافات : الآية 12.

*** سورة هود : الآية 72.

**** سورة التوبة : الآية 9.

5.محمد أركون " الفكر الإسلامي قراءة علمية "، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط2، 1996،ص 189.

6.المرجع نفسه، ص 189.

7. جميل صليبا " المعجم الفلسفي"، ج2، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1990 .

8.إدريس الناقوري " الواقعية الرمزية في القصة المغربية "، مؤسسة الأبحاث العمومية، ط1، بيروت، 1986، ص 236.

9.فوزي العنتيل "عالم الحكايات الشعبية" دار المريخ للنشر، الرياض، 1983، ص 17.

10. عبد الحميد بورايو "القصص الشعبي في منطقة بسكرة " المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص131.

11. عبد النور جبور " المعجم الأدبي " دار المعارف للملايين، بيروت، ط 1 1979، ص 97.

12. الحكايات الشعبية من الشرق الجزائري:

- حكاية " الرجل الذي يبحث عن الله "
- حكاية " الطفل القزم "
- حكاية " ابن الفقير وابن الغني "

13. "ألف ليلة وليلة " حكاية الحمال مع البنات " المجلد الأول المكتبة الثقافية، بيروت .لبنان 1881، ص 80 .

- حكاية " الرجل الذي أكل ابنه "

14. روزلين ليلى قريش، "القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1920، ص 65.

- "حكاية التوأم العجيب ".

- "حكاية خاتم سليمان "